أثر العربية و آدابها في شعر إقبال

أ.د. ظهور أحمد أظهر

شاعران عبقريان عظيمان من بين شعراء شبه القارة قد نبغ كل واحد منهما في وقته و نال قمة الشعر الفارسي، و قد أتيا فيه بالروائع من الإبداع والإنتاج مما لم يستطعه أحد غيرهما عبر العصور، وقد أحب كل واحد منهما وتمنى لو قدر على التعبير بلغة الضاد وتمكن من قرض الشعر بها! وبعبارة أصح و أدق من ذلك، قد أرادا أن يكونا شاعرين عربيين يقدران على قرض الشعر باللغة العربية كأحد من أبنائها الشعراء الفطاحل إلا أنهما لم يوفقا فيما أراداه ولم يتمكنا من تحقيق ما تمنياه، وبالتالى، فقد تأسف كل واحد منهما على هذا الحرمان وندم على ذلك الخسران العظيم، ويكاد يبلغ تأسفهما على ذلك الحرمان والخسران مبلغ الحزن والبكاء! ومن ثم لم يجدا أمامهما طريقا غير اختيار اللغة الفارسية كلغة التعبير والقريض، فأما أحد هذين الشاعرين فهو المفكر الإسلامي الكبير وشاعر الشرق العلامة الدكتور محمد إقبال السيالكوتي المولد اللاهورى الموطن و المدفن، وهو موضوع حديثنا هنا، وسنتحدث عنه ونفصل القول عن أثرالعربية وآدابها في شعره الفارسي والأردي، وأما الثاني فهو الشيخ الجندي والشاعر الفارسي المتفنن والموسيقار المبدع الشيخ (أمير خسرو) الدهلوي المتوفي(٧٢٥هـ/١٣٢٥م) والذي أنتج الشعر الفارسي الغزير حتى تجاوز سبعمائة ألف بيت شعري وأضاف أوتارا

جديدة بديعة إلى الموسيقي الهندية بالإضافة إلى مؤلفاته الفارسية القيمة وشعره العربي والهندي، وقد عاش قبل إقبال بقرون عديدة في نهاية القرن الهجري السابع و أدرك أول القرن الهجري الثامن، وقد عاش إقبال في نهاية القرن الهجري الثالث عشر وأدرك أول الرابع عشر، فقد ولد إقبال في التاسع من نوفيمبر سنة ١٨٧٧م وتوفي في الواحد والعشرين من شهر ابريل سنة ١٩٣٨م ، ويكاد النقاد يجمعون على أن (أمير خسرو) أكبر شاعر فارسي قديم لشبه القارة كما أن إقبال قد كان خير تعويض عن القرون الخالية التي تلت أمير خسرو فقد أنتج إقبال أكثر من ستة دواوين شعرية بالفارسية ، وبها جل شعره وأجوده وأحسنه ، وقد اختار هذان الشاعران العبقريان العظيمان اللغة الفارسية كأداة للتعبير الشعري (وهي لم تكن لغة الأم لأحد منهما! فقد كانت التركية هي لغة الأم لأمير خسرو، وأما إقبال فلغة أمه هي اللغة البنجابية، وليست الفارسية ولا الأردية!!) وقد اعترف الناس بفضلهما كشاعرين فارسيين عظيمين في شبه القارة ! وحتى أن أهل اللغة من الإيرانيين يعترفون بمكانة أمير خسرو الدهلوي كشاعر اللغة الفارسية فقد أنتج بها الشعر الغزير وأقام العديد من الدواوين الشعرية التي أثارت ضجة في داخل شبه القارة وفي غيرها من مواطن اللغة الفارسية، وقد تجاوز عدد أبياته الشعرية سبع مئة ألف بيت كما ذكر: وكذلك إقبال الذي ضاقت الأردية المتخلفة بشعره فيئس منها فقرر أن يتحول منها إلى الفارسية فأتي بالروائع الشعرية الفارسية التي أثارت ضجة ليس في شبه القارة فحسب بل في مواطن الشعر الفارسي وبلاده كلها، ومنها إيران نفسها فقد اعترف علماء إيران

وكتابها وشعراؤها بفضل إقبال، وحتى أن قادة الثورة الإيرانية المعاصرة قد اعترفوا بذلك وصرحوا بأن إقبال هو شاعر ثورتهم الإسلامية ومن حداتها الروحيين الذين نفثوا الروح المعنوية في نفوس الشبان المسلمين الإيرانيين وحرضوهم على العمل الثوري!

وقد تعلم الشاعران اللغة العربية فأتقناها إتقانا جيدا فودّا أن يقرضا الشعر بها، وفعلا قد حاول (أمير خسرو) ، الشاعر الفارسي الإسلامي الكبير أن ينظم الشعر بالعربية فأنتج ما لا يقل من خمس مئة بيت من الشعر العربي، بين قصائد وقطعات شعرية أو أبيات مفردة مبعثرة ، ويضمها دواوينه الشعرية الفارسية وكتبه المؤلفة بالنثر الفارسي مثل الإعجاز الخسروي وخزائن الفتوح ومقدمة ديوانه الفارسي الذي سماه "غرة الكمال" إلا أنه قد أخفق وفشل فيما حاوله واعترف بفشله غير مرة! وأما إقبال. فرغم أمنيته القوية ورغبته الملحة في قرض الشعر بلغة الضاد، لم يحاول ذلك أبدا بل لم يخطر بباله يوما أن يحاول ذلك، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى خشونة العربية المتداولة في عصر إقبال ، فقد كانت عبارة عن أسلوب الأدب المقاماتي المتكلف الثقيل بالسجع والقافية، وسهولة الفارسية وسلاستها وخفتها وحلاوتها، ولأن إقبال كان يخشى أن يكون مصيره في ذلك مصير الشيخ أمير خسرو الذي أراد أن يذلل الأساليب الشعرية العربية فيقربها من الأساليب الشعرية الفارسية كقوله:

صرت مسكينا في الصدع وصبحي آه وغدا الشعر بألوان جوي كافورا

أو كقوله في التوحيد وقدرة الله المطلقة:

كمـا مثله غـيره مـا يُـرى   لـــه الحكم بالحق فيما جرى

و الواقـع أن الـزعامة والقـيادة أو العظمـة والكمـال في مجـال الشـعر وفـنونه في شبه القارة الإسلامية يقصر علي الشعراء الثلاثة وهم: الشيخ أمير خسـرو الدهلـوي وآزاد الـبلكرامي والعلامـة الدكتور محمد إقبال ، وذلك لأن الشـعب المسـلم الهـندي. المنقسـم الـيوم إلى باكسـتان وبـنجلاديش والهـند ـ لم ينجـب شـاعرا أكبر من هؤلاء الثلاثة، فأما خسرو فقد كان أكبر شاعر فارسي فـي وقـته قد أنتجته شبه القارة الإسلامية كما أنـه هو أكبر فنان للموسيقي قد نـبغ في الشـعب المسلم الهندي وأبدع العديد من الأصوات والألحان الموسيقية ، وأمـا (غلام علي آزاد) البلكرامي فقد كان هو أكبر شاعر عربي دون منازع نشأ بـين مسـلمي شـبه القـارة وأكـثر مـن المدائـح الـنبوية حـتى حاز لقب (حسان الهـند)، ولــه أكـثر مـن سبعة دواويـن شعرية بالعربية وهو الشاعر العربي الهـندي الوحـيد الـذي سـاهم في إثـراء الشـعر العـربي فـنقل الـبدائع الفنـية الشـعرية مـن اللغـة السينسـكريتية إلى لغة الناطقين بالضاد والذين لم يعرفوا فضـله ولم يطلعـوا عـلى إنـتاجه الشـعري النادر حتى اليوم إلا القليل منهم ، وبالإضـافة إلى ذلـك فقـد ألـف "سبحة المـرجان في آثار هندوستان"، والمؤلفات القيمة العربية الأخرى ، ولكن لم يكن لهذين الشاعرين العظيمين _ خسرو و آزاد — أي دور في الحياة السياسية والدينية والإجتماعية لمسلمي شبه القارة.

وأمـا العلامـة إقـبال فقـد كـان شـاعرا وكاتـبا وزعيما سياسيا ومفكرا إسـلاميا ومصـلحا اجتماعيا وعالما دينيا في نفس الوقت ، وقال الشعر باللغتين الأرديـة والفارسـية ولـه مؤلفـات وبحـوث بالإنجلـيزية والأرديـة، وله شعر

غزير رصين متين ودواوين شعرية عديدة باللغتين الأردية والفارسية. ولم يكن شاعرا عاديا، وإنما كان عبقريا نادرا، وهو الذي قرر أن يستخدم الفلسفة و ربة الشعر للإسلام ومن أجل النهضة الإسلامية، إذن فهو شاعر فريد وله دور تاريخي ورسالة عظيمة، وشعره يفوق من سبقه ومن جاء بعده من الشعراء في بلده ، ورسالته العظيمة إنما هي دعوة إلى صحوة أمة الإسلام ووحدتها ودورها القيادي في كافة المجالات وهو يدعو إلى الاعتراف بمكانة الإنسان وكرامته، وهو فيلسوف و مفكر إسلامي كبير ليس له مثال ولا نظير، وهو زعيم سياسي عظيم قام بدوره في صحوة الشعب المسلم الهندي و وحدته والدفاع عن حقوقه والذود عن كرامته و مقدساته، وقد ترأس الرابطة الإسلامية الهندية ونظمها تنظيما جيدا، وهو الذي دل الشعب المسلم على (محمد علي جناح) ودعاه ليضطلع زعامة المسلمين ويقودهم في المرحلة الخطيرة من تاريخهم وفي معركتهم المصيرية الحاسمة ، فلولا إقبال لما اتحدت الرابطة الإسلامية الهندية، ولما أتيح لمحمد علي جناح أن يقودها ولما تمكن المسلمون من إنشاء دولة مستقلة لهم ولما قامت جمهورية باكستان الإسلامية. وتلك هي عظمة إقبال الحقيقية!!

فالفرق بين هؤلاء الشعراء الثلاثة واضح وكبير جدا، كما أن علاقتهم بالعربية تختلف اختلافا واضحا وكبيرا، فقد أراد الشيخ(أمير خسرو) أن يجيد اللغة العربية ويتقنها لأنها كانت لغة الآداب الغنية الكثيرة والفنون المتنوعة الواسعة كان هو مولعا بها فاحب أن يساهم فيها ويضيف شيئا جديدا إلى التراث الشعري العربي وليبلغ فيه الغاية ويدرك شأو الفحول من الشعراء

الجاهليين والإسلاميين وليأتي بما أتوا به من الروائع في الفنون الشعرية إلا أن خسرو لم يوفق في ذلك ولم يتمكن من تحقيق ما أراده، وأما آزاد البلكرامي فقد درس العربية والفارسية على جده من الأم الشيخ عبدالجليل البلكرامي الشاعر العربي لشبه القارة، وقد أتقن آزاد اللغتين العربية والفارسية كما أنه تتبع مدرسة جده الشعرية فنهض بها وتقدم حتى بلغ فيها القمة التي لم يبلغها أحد غيره قبله ولا بعده، إذ هو أكبر شاعر عربي أنجبته شبه القارة دون منازع، ولكنه أخفق في الشعر الفارسي كما أخفق قبله صاحبه خسرو في الشعر العربي رغم محاولة كليهما الجدية والجهود المبذولة في ذلك، وأما إقبال فإنه لم يرد أن يكتسب شهرة مدوية في مجال الشعر العربي كما أرادها خسرو كما أنه لم يرث مدرسة شعرية كما ورثها آزاد من جده وإنما تعلم إقبال اللغتين العربية والفارسية لأن العربية هي لغة القرآن الكريم ولغة الحديث النبوي، كما أن الفارسية كانت هي لغة المثقفين ولغة الشعر في شبه القارة وقد درس إقبال اللغتين كلتيهما على أستاذه الفاضل الشيخ مير حسن السيالكوتي الذي له دور أساسي في تثقيف إقبال و تهذيبه وتعليمه و تأديبه، وهو مدين لهذا الرجل العظيم النبيل الفاضل بعد أبويه الصالحين، وبما أن إقبال لم يكن عالما بالعربية والفارسية وآدابهما فحسب وإنما تعلم الكثير من العلوم واللغات المتداولة الأخرى بين أهل زمانه، ومنها الأردية والإنجليزية والسياسة والحقوق والاقتصاد والفلسفة، ومن ثم فقد قام بدور زعيم سياسي ومفكر إسلامي ومصلح اجتماعي ممالم يتح لصاحبيه ،خسرو وآزاد فهو الذي اقترح بإنشاء دولة إسلامية مستقلة تضم المناطق التي كانت أغلبية سكانها من

المسلمين ، وفكرة إقبال هذه قد أصبحت هي نواة لجمهورية باكستان الإسلامية وهو الذي دل مسلمي شبه القارة علي قائد (أعظم) الفذ محمد علي جناح الذي قاد معركة الأمة المصيرية في إنشاء دولتها المستقلة!

وقد كان إقبال شاعرا موهوبا وعبقريا فذا فبدأ يقرض الشعر بالأردية فأثراها بشعره وأقام بها أربعة دواوين شعرية قيمة وهي صوت الجرس وجناح جبريل وضربة الكليم وهدية الحجاز ، و لكن سرعان ما اتضح له بأن الأردية المتخلفة لا تسع فكره الواسع العميق المتدفق الغزير فأراد أن يتحول عنها إلى لغة راقية غنية تسع فكره وتفي بغرضه ، فاختار الفارسية السهلة السلسة المرنة الحلوة ولم يختر العربية لأسباب منها أن الفارسية أسهل من العربية ومنها أنه خاف أسلوب العربية الثقيل المتكلف من السجع والقافية ، ذلك الأسلوب الثقيل الذي فرضه الهمذاني والحريري والقاضي الفاضل وأضرابهم على العربية فسادها ذلك الأسلوب قرونا طويلة ولكنه لم يُجدِ بطائل على لغة القرآن، وإنما كان جناية عليها فقد مهد الطريق للفارسية لتحل محل العربية ولولاه لكانت العربية اليوم هي لغة المسلمين جميعا، وهو الذي خوف إقبال وحذره و أبعده عن العربية! وفوق ذلك كله فإن إقبال كان يخشى أن يسئ إلى لغة القرآن فلا يتمكن من التعبير الشعري بها كأهلها من الشعراء العُرب الفحول!!

ولا شك أن إقبال لم يستطع أو قل إنه لم يرد، أن يقرض الشعر بالعربية ليبلغ رسالته الفكرية إلى العرب إبلاغا مباشرا، ولكنه في الوقت نفسه، لم يستطع أن يتحرر من قيد العربية أو يقطع صلته بها بل ظل يحبها

ويتمني لو تمكن من قرض الشعر بها ليخاطب به إخوانه العرب خطابا مباشرا ويبث إليهم فكره ويوجه الدعوة إلى قادتهم وسادتهم ليضطلعوا لقيادة الأمة في معركتها المصيرية لأنهم وحدهم، في رأى إقبال، أكفاء لها وأحق بها،فيجب عليهم أن يتزعموا قافلة الحجاز كما تزعمها و قادها أسلافهم فيما مضي من الزمن فيقودوا نهضة الأمة الإسلامية في زحمة الأحداث المعاصرة وفي معركتها المصيرية وعلى وجه أخص أهل المهد الإسلامي العريق، أمة الحجاز في قيادة عبدالعزيز ابن سعود وأبنائه البررة الكرام فهم أحق بها وأهلها، فلقد قال إقبال وهو يتكهن بالمستقبل ما معناه: "إن سكوت الحجاز وهدوءه قد أبلغ المنتظرين المترقبين وأخبرهم بأن عهدا كان قد تم بين أهل الصحراء من أهل الحجاز وبين الأقدار في الأزل وأنه سوف يتجدد ذلك العهد في القريب العاجل من المستقبل مع الأمة الحجازية، تلك الأمة التي كانت قد خرجت من باديتها فانتصرت على إمبراطوريتي الفرس والروم، هذه الأمة الحجازية نفسها سوف تنتبه وتستيقظ من جديد مرة أخرى، فكأنه نداء قدسي ملكوتي سمعتُ به فتأكد لي بأن للحجاز وأرض الحرمين الشريفين لدورا جديدا في قيادة الأمة الإسلامية في نهضتها الجديدة وصحوتها المباركة!!"

إن ثقة إقبال القوية وأمله الكبير في أمة الحجاز وقادتها كان قد جعله يتمني اللقاء بالملك عبدالعزيز ابن سعود خلال الحج الذي كان إقبال قد أعتزم عليه وأخذ يستعد له لولا مرضه العضال ومنيته المفاجئة المفجعة، ولعل ذلك يرجع إلى السببين أحدهما وأولهما هو اعتقاد إقبال الجازم بأن الثورات

البشرية وقياداتها التي غيرت – وتغير في معظم الأحوال والظروف- مجري التاريخ عبر العصور كان مركزها الأول ومصدرها الدائم هي البوادئ والصحاري أو الريف المتبدي، ومن ثم فقد كرر إقبال في شعره و فكره و اعتقاده هذا فقال بأن "رجل الصحراء أو البادية القائد هو وحده يقدر على القيام بدور ثوري والدفاع عن السنن الإلهية في كونه وأرضه وهو وحده يستطيع أن يغير مجري التاريخ وذلك هو حكم التاريخ البشري وقضاؤه عبر العصور! والسبب الثاني الذي جعل إقبال يعتقد ذلك الاعتقاد الجازم هو وعيه للتاريخ الإسلامي نفسه والذي بإمكانه أن ايجدد نفسه ويعيد كرته حيث انطلقت الثورة الإسلامية الكبرى من الجزيرة العربية وانبثق نور الفجر الحضاري الإسلامي من الحراء فتحركت قوافل الحق والإيمان هادية داعية وغازية فاتحة تدعو إلى الله وتهدي إلى سبل الحق والسلام،وتغزو في سبيل الله وتنتصر، ذلك ما جعل إقبال يري بأن نهضة الإسلام الجديدة سوف تنطلق من الجزيرة العربية نفسها فتقودها أمة الحجاز لكي تكون النهاية من حيث كانت البداية! ويكون آخر الأمة كما كان أولها!! إلا أن فكرة إقبال هذه لم تصل إلى أمة الحجاز وقادتها لأنه لم يستطع أن يخاطبها بالعربية مباشرة، ولأنه لم يتمكن من السفر إلى الحجاز واللقاء بالملك عبدالعزيز،القوة الحجازية الناهضة في وقته!!

ومن المؤسف المؤلم جدا أن إقبال كان يعرف العربية وكان قد تعلمها في الكُتاب وهو صبى كما كان يعرف الفارسية وكان قد تعلمها في نفس العهد وفي نفس المكان، ولكنه لم يقرض بالعربية شعرا ولم يحاول أن يقوله بها،

ولعل ذلك لم يخطر بباله يوما ، وإنما اختار الفارسية وفضلها على العربية كما فضلها على الأردية فتحول عنها إلى الفارسية لأنه أراد أن يبلغ رسالته إلى أكبر عدد ممكن من المسلمين في شبه القارة وفي افغانستان وآسيا المركزية وفي إيران و في غيرها من المناطق! ولأن الفارسية أسهل وأحلي من غيرها من اللغات، ولأن الفارسية ظلت لغة رسمية لشبه القارة الإسلامية وكانت لغة الأدب والثقافة في عهد إقبال ولأن العربية في وقتها كانت تعاني من الأسلوب المعقد المتكلف من السجع والقافية مما خوف الناس ونفرهم من العربية وأبعدهم عنها!!

على الكل، فإن إقبال لم يقرض بالعربية شعرا، ولعل ذلك لم يخطر بباله،ولكن الذي ليس فيه شك ولا ريب هو أن إقبال كان يحزن على ذلك الحرمان ويتأسف على أنه لم يتمكن من أن يخاطب العرب خطابا مباشرا بلغتهم لكي يعرفوا شعره ويفهموه فهما جيدا ويقدروه حق تقدير، ولكي يتمكنوا من تحقيق ما تمناه إقبال أن يحققوه من قيادة العالم الإسلامي وزعامته في زحمة الأحداث والظروف الراهنة وفي معركة الأمة المصيرية الحاسمة، ونراه يقول لهم ما معناه:

"إن العالم العربي لم يعرف شيئا عني لحد الآن، ولم يتمكن من الإطلاع على شعري وفكري رغم أن أصداءه الصارخة قد أثارت ضجة في عالم العجم (من الناطقين بالفارسية)"

و إلى ذلك يشير أول مترجم عربي لشعر إقبال إلى العربية شعرا، (– ألا وهو الأستاذ الدكتور عبدالوهاب عزام، رحمه الله، السفير المصري الأول

لدي حكومة باكستان بعد إنشائها، وهو المترجم العربي الوحيد الذي رأي إقبال والتقي به في حياته بالقاهرة حين زارها في طريقه إلى فلسطين العربية المسلمة وعاصمتها القدس الشريف ليشارك في المؤتمر الإسلامي الذي دعاه إليه مفتي فلسطين الأكبر السيد أمين الحسيني في سنة ١٩٣٢م)، - حين يقول لإقبال مخاطبا إياه بعد وفاته:

قلت في العجم وقدة من غنائي   و مادري العرب من غنائي شيا
وأري العرب شعرك اليوم تروي   وتغني بلحنه عربيا
شعرك اليوم في الحجاز حداء   وبأرض الحجاز تبعث حيا
ذاك وحي القرآن يأتيك طلا   ولأرض القرآن يرتد فيا!!

أفليس من الغريب، والجدير بالذكر، أن إقبال كان قد درس اللغة العربية، وهو طالب في صباه، وقد أنفق في دراسته لها مدة أطول مما كان قد أنفقه في دراسته للغة الفارسية؟! وذلك لأن إقبال كان قد درس الفارسية كلغة إجبارية وهو طالب بالمدرسة الإبتدائية الحكومية، وكانت مدة الدراسة بها آنذاك أربع سنوات فقط! وأما اللغة العربية فقد درسها إقبال كمادة دراسية انتخابية وغير إجبارية من الدرجة الوسطى إلى الثانوية فدرجة التخرج أي البكالوريا، وقد استغرقت هذه الدراسات العربية عشر سنوات طويلة!! وأغرب من ذلك، وأجدر بالذكر، هو أننا لا نعرف شيئا عما جعل إقبال يعرض عن لغة الضاد ولغة القرآن، رغم تلك الدراسات العربية الطويلة، غير ما أشرنا إليه آنفا وغير ما ذكره الشيخ أبو الحسن الندوي بأن العربية كانت

تعانى في وقتها من الأسلوب التقليدي العقيم، فيميل إلى الفارسية فيختارها كأداة للتعبير الشعرى له دون العربية!

والواقع أن مستوي اللغة العربية في بلاد شبه القارة، بما فيه جمهورية باكس تان الإسلامية اليوم ، كان ، ولا يزال ، ضعيفا، فقد عاشت العربية غريبة بين أهلها من المسلمين، ولم تزل ولا تزال تدرس كلغة ميتة وكأنها لا صلة لها بالحياة العملية، فالمدرس العربي، عادة، بالأمس واليوم، يعرف العربية قراءة فقط! ولا يعرفها كتابة ولا حديثا إلا نادرا، إذ يدرس العربية ثم يدرسها ، إيمانا منه واقتناعا، بأنها لم تعد لغة حية، وانقضي دورها مثل اللغة الإغريقية واللاتينية والسنسكريتية، لأن دارس العربية ومدرسها، قلما تتاح لهما فرص الاحتكاك بأهل اللغة من الناطقين بالضاد، فإذا أتيح لهما اللقاء بأحد من الإخوة العرب، هنا أو هناك، يجدونهم يتحدثون بلغتهم العامية دون الفصحي، وأما المتعلمون المثقفون منهم فإنهم كانوا، في عصر إقبال، إذا كتبوا شيئا بالعربية الفصحى أو تحدثوا بها، كتبوا أو تحدثوا بأسلوب مقاماتي مرعب رهيب من السجع والقافية، مما كان يخوف الناس من العربية وينفرهم منها ويبعدهم عنها! وكذلك لم تتح لإقبال فرصة الاحتكاك بأهل اللغة العربية أو من يتقنها من الأساتذة كتابة وحديثا، وإنما ظل إقبال، طوال السنوات العشر الطويلة، يدرس العربية ويتعلمها من هؤلاء الأساتذة الذين كانوا — ولا يزالون، إلا قليل منهم— يتبعون طرق التدريس القديمة العقيمة التي ورثوها كابرا عن كابر، وهى

الطريقة التي لا تهتم بالحديث أو الكتابة باللغة العربية وإنما تكتفي وتقتنع بقراءة النصوص المختارة وترجمتها إلى لغة محلية يعرفها الطالب!

ويجدر بنا أن نعرف جيدا ونتذكر دائما بأن إقبال قد عاش في فترة يمكن لنا أن نسميها فترة انتقال أو نقطة تحول في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية للشعب المسلم الهندي حيث كان الاستعمار البريطاني البغيض قد أخذ يفرض سيادته الحكومية وهيمنته السياسية ويشدد وطأته ويسيطر غلبته على البلاد، وبدأ يسلب حقوق المسلمين المغلوبين على أمرهم ويبسط يده الحديدية على النظم الإدارية معتزما على القضاء الحاسم أو الضربة القاضية على النظام التعليمي الإسلامي ليحل محله النظام التعليمي الإنجليزى الاستعماري ومن ثم فقد كان الطفل المسلم سواء في ذلك إقبال وغيره من أبناء الشعب، خلال هذه الفترة الانتقالية المضطربة، يدرس اللغة الفارسية في الابتدائية كمادة إجبارية ، وكان لا بدله أن يختار إحدى اللغتين الفارسية أو العربية في الوسطى والثانوية وقد اختار إقبال العربية في هاتين المرحلتين كلتيهما، وأما في مرحلة التخرج أو البكالوريا فقد كان الطالب المسلم ينتخب العربية من بين المواد الدراسية المتعددة، وقد انتخب إقبال العربية أيضا في مرحلة التخرج، وذلك بالإضافة إلى ما كان يحضر في الحلقات الدراسية الخاصة التي كان يشرف عليها أستاذه المعروف الشيخ (مير حسن) السيالكوتي الذي أولى اهتمامه الخاص بتعليم إقبال وتثقيفه ثقافة إسلامية عريقة.

ومن هنا يتضح لنا جليا أن إقبال كان يعرف العربية كلغة القراءة فقط دون الحديث أو الكتابة بها، وقد انفق في دراستها سنوات كثيرة ومدة غير قصيرة، وتنص الوثائق على أن إقبال كان قد نجح في امتحان البكالوريا من جامعة بنجاب ونال علامات جيدة في مادة اللغة العربية مما استحق به وأهله ذلك للتعيين مدرسا للغة العربية بالكلية الشرقية لجامعة بنجاب قبيل سفره إلى أوربا من أجل الدراسات العليا.

والجدير بالذكر هنا أيضا أن أسرة إقبال في بيتها كانت تتحدث باللغة المحلية ألا وهي البنجابية، وبالإضافة إليها فقد كان إقبال يعرف أربع لغات معرفة جيدة وهى العربية والفارسية والأردية والإنجليزية حيث تعلمها في مراحل التعليم المختلفة، وهكذا كان إقبال يجيد خمس لغات على مستويات متفاوتة ومختلفة كما أنه كان يلم إلماما بالألمانية والفرنسية وربما بالإسبانية أيضا حيث زار أسبانيا في ١٩٣٢م والمهم أن إقبال كان قد تعلم العربية و درسها فكان يفهمها فهما جيدا إذا أتيح له أن يقرأ بها شيئا أو إذا سمع أحدا يتحدث بها، ويدل على ذلك الدعوى مايأتى:

(١) وثائقه التعليمية الرسمية أو الشهادات التي حصل عليها من شهادة الثانوية إلى شهادة التخرج أو البكالوريوس.

(٢)ويروي شيخنا العلامة أبو الحسن على الندوي، رحمه الله، أنه التقي باقبال قبيل وفاته بسنوات فأراه ما ترجم إلى العربية من شعره فقرأ إقبال الترجمة العربية فأعجب بها واستحسنها فوجه إلى الندوى الشاب بعض الأسئلة يمتحنه بها حتى إذا تأكد له بأنها ترجمة جيدة أذن للشيخ

الندوى أن يستمر في ترجمته لشعر إقبال ليعرِّفه بالعالم العربي الذي لم يعرف شيئا من شعر إقبال في حياته إلى أن جاء الدكتور عبدالوهاب عزام رحمه الله فعرب شعر إقبال وعرف به وبشعره وفكره فى العالم العربى!

(٣)ومما يدل على أن إقبال كان يفهم إذا سمع أحدا يتحدث بين يديه بالعربية، أنه نزل من السفينة، وهو في طريقه إلى اوربا، على أرض مصر في بور سعيد فالتقي بالباعة و الشبان المصريين الذين رحبوا باقبال كشاعر مسلم هندي مسافر طالبا إلى أوربا وتحدثوا إليه بكلام رنان من السجع والقافية بلهجة مصرية تقليدية وفهمهم إقبال دون مترجم أو واسطة، وأعجب بحديثهم الأخوي العذب مما جعل إقبال يكتب رسالة إلى البعض من أصدقائه وقد سجلها نجله (جاويد إقبال) في كتاب له قد ألفه عن حياة والده بالأردية وسماه(زنده رود أي النهر الخالد) وإليكم نصها المترجم:

"السفينة البحرية التي كانت تحمل إقبال ومن معه، قد مرت بقناة السويس في شهر سبتمبر لسنة ١٩٠٥م وأرست في مينائها البحري بور سعيد فنزل منها إقبال وقد لبس قبعة إنجليزية فقابل المصريين الموجودين على الرصيف وأخبرهم بأنه طالب مسلم من الهند وأنه في طريقه إلى أوربا للدراسات العليا إلا أنهم لم يصدقوه بأنه طالب مسلم مما جعل إقبال يتعوذ ويبسمل ويتلو عليهم آيا من الذكر الحكيم فسرهم ذلك سرورا بالغاً للغاية فاخذوا يقبلون يديه ويحترمونه احتراما كثيرا وبينما هم في ذلك فإذا بفرقة من الجنود المصريين تمر بهم في القناة وكان الجنود قد لبسوا الطرابيش التركية وهم يغنون الأغاني العربية الغزلية على حد تعبير إقبال نفسه ثم

جاءت له جماعة من الطلاب المصريين فظنهم إقبال في الوهلة الأولى بأنهم طلاب جامعة عليكره الإسلامية فتقدم إليهم فتحدث معهم بالإنجليزية إلى أمد غير قصير فإذا بشاب مصري يخاطب إقبال مرحبا به ويتحدث إليه بالعربية الجميلة الفصحي كأنه يقرأ مقامة من مقامات الحريري على حد تعبر إقبال نفسه!"

إلا أن إقبال، رغم معرفته الجيدة باللغة العربية ، لم يتمكن من قرض الشعر بها، وقد اضطر- بعد عودته من أوربا وقد تأكدله بأن اللغة الأردية المتخلفة لا تسع لأفكاره الجياشة المتلاطمة ولا تستطيع أن تسايرها ولا تساعد الشاعر على قرض الشعر بها ، فقرر في نفسه إما أن يودع ربة الشعر ويفارقها نهائيا أويلجأ إلى لغة راقية من بين اللغات الإسلامية، إذا كان لابد له أن يستمر في إنتاجه الشعرى كما نصح له بعض أصحابه وأصدقائه وألحوا عليه في النصح وأشاروا عليه وأخلصوا في الإشارة أن لا يضيع موهبته الأدبية وعبقريته الشعرية النادرة- اضطر إقبال أن يختار لغة إسلامية تمكنه من التعبير الشعري بها بكل سهولة ويسر،لكي يتمكن من الخطاب لأكبر عدد من قراء أمة الإسلام في العالم ليفهموه فهما مباشرا دون واسطة أو ترجمة، فلم يجد لغة غير اللغتين الإسلاميتين: العربية والفارسية فاختار إقبال الأخيرة بكل حزن وأسف على حرمانه من العربية التي لم يستطع أن يتحرر منها إقبال تحررا نهائيا فقد أثرت العربية في شعره وفكره وفي أساليبه البيانية وتعبيراته الفنية ، وأني له أن يتحرر من العربية وتأثيرها وقد غذي بها تغذية صالحة وهو صغير حيث تعلم القرآن الكريم فحفظ من آياته

البينات ما حفظ وتعمق في معانيها ما تعمق ، كما أتيح له أن يدرس اللغة العربية، لغة القرآن الكريم دراسة منتظمة على عالم كبير مثل الشيخ(مير حسن) السيالكوتي كما درسها دراسة رسمية في الصفوف الوسطي والثانوية المدرسية، فأحب إقبال العربية وتأثر بآدابها أيما تأثر وأعجب بشعر شعرائها الفحول أيما إعجاب، كما تأثر بهم واستخدم شعرهم واستفاد منهم في شعره ، وقد ترك هذا التأثر والتأثير آثارا ثقافية وأدبية فيجدر بنا أن نتناول بعض الجوانب من ذلك لكي نتكمن من تقدير أثر العربية وآدابها في شعر إقبال وفكره ، ونخص بالذكر منها ما يأتي:

١) فأولها وعلى رأسها هي المفردات اللغوية العربية التي استخدمها إقبال في شعره الأردي أو الفارسي، وهي كثيرة تتراوح نسبتها من الستين إلى الثمانين في المئة، علما بأن هذه المفردات العربية التي استخدمها إقبال هي على ثلاثة أقسام فمنها ما تعلمه إقبال مباشرة نتيجة دراساته العربية في المراحل التعليمية الرسمية المختلفة أو ما تعلمه من قراءة القرآن الكريم ودراسته، ومنها ما جاء له من طريق اللغة الفارسية الأيرانية أو الهندية ومنها ما دخل إلى اللغة الأردية مباشرة أو من طريق الفارسية التي غذت الأردية تغذية لغوية وأدبية كما غذتها العربية بفنونها الشعرية ومصطلحاتها الفنية وموادها الأدبية الغزيرة.

٢) وأما المصطلحات الفنية والتلميحات الأدبية والثقافية والتاريخية التي يزخر بها الشعر العربي على اختلاف العصور والأدوار فقد استخدم إقبال الكثير منها كما سنري فيما بعد.

٣) المعاني والاقتباسات القرآنية التي جرت على لسان إقبال والتي يحفل بها شعره الفارسي والأردي، وذلك شئ طبيعي لأن الشاعر العبقري الذي سمع أباه وهو يوصيه بقراءة القرآن الكريم، أن يداوم ويركز على التلاوة بكل خشوع وخضوع وإكبار لكلام الله المجيد وكأنه ينزل على قلبه وكأنه بين يديه سبحانه وتعالى، فحينئذ يستطيع أن يفهم كتاب الله العزيز وينتفع به في دنياه وعقباه!

٤) المعاني والأفكار التي اكتسبها إقبال بالإضافة إلى التعبيرات الشعرية العربية لشعراء العرب الذين درس شعرهم خلال الدراسات الرسمية والخاصة.

فهذه وغيرها جوانب من أثر العربية في شعر إقبال ،وهي ليست مما يستغرب أو يخص إقبال إذ هي جوانب بارزة من الثقافة العربية الإسلامية التي تعم حياة الأمم والشعوب التي دخلت في الإسلام واعتنقت دين الله القيم الحنيف فتأثرت بكل ما يتضمنه هذا الدين من القرآن والحديث النبوي وثقافة العرب و التقاليد الثقافية والأدبية والقيم الخلقية لمسلمي البلاد غير العربية التي دخلها العرب وحكموها مدة من الزمان أو دخلها الإسلام من طريق التجار المبلغين الذين حملوا معهم لواء الإسلام ودعوا الناس إليه كالأندلس وشبه القارة وبلاد ماوراء النهر وشرق آسيا مثل إندونيسيا وما ليزيا وبعض بلاد أفريقيا، فمن قال منهم الشعر بالعربية وألف بها أو بلغة من لغاتهم فقد تأثروا جميعهم بالثقافة العربية الإسلامية دون استثناء إلا أن مقدار هذا التأثر ومستواه يختلف من بلد إلى بلد ومن شخص إلى شخص ، وأما تأثر

إقبال بالعربية وآدابها وبثقافة العرب وتقاليدهم فقد كان على أوسع نطاق وفي أبرز صور مما يجعلنا نقول بأن إقبال كان بإمكانه أن يختار العربية لقرض الشعر بها بدل الأردية أو الفارسية!

ولكنه مال إلى الفارسية فقال بها أروع الشعر وأجوده حتى فاق فيه أهل اللغة وقد اعترفوا بفضله في ذلك وحتى أنه أنتج بالفارسية معظم شعره وجاء بأكثر من سبعة دوا وين شعرية فارسية قد نال إعجاب الناس وتقديرهم في الشرق والغرب!

فالمهم أن الشعراء والكتاب في البلاد الإسلامية غير العربية قد تأثروا بالشعراء والكتاب العرب أو قل إنهم قلدوا شعراء العرب وكتابهم ولم يستطيعوا أن يتحرروا من التقاليد الثقافية والأدبية التي وصلت إليهم من العواصم الثقافية العربية على اختلافها، ولن يكون من الغلو أو المبالغة إذا قلنا إنهم لم يريدوا أن يتحرروا من تلك التقاليد العربية بل اختاروها مفتخرين معجبين بها، وخذ، على سبيل المثال، الأندلس الإسلامية فإننا نري ابن الأفطس محمد المظفر صاحب بطليوس من ملوك الطوائف يزجر شعراء بلاطه فيقول لهم :"من أراد منكم أن يقول الشعر فعليه أن يتتبع فحول العرب وفطاحلهم ومن لم يكن شعره مثل شعر المتبنئ أو المعري فليسكت!!" وحتى أن المغاربة من أهل الأندلس كانوا يلقبون شعراءهم بأسماء الشعراء العرب في الشرق، فقد لقبوا ابن هانئ الأندلسي بمتنبئ الغرب، وهذا هو شاعرهم الكاتب الفقيه ابن حزم الظاهري يرتجل الأبيات الشعرية ويقلد فيها طرفة بن العبد في معلقته:

وقفت به لا مـوثقا بـرجوعـه "ولا آئسا أبكى وأبكى إلى الغد"

إلى أن أطال الناس عذلي وأنكروا "يقولون: لاتهلك أسي وتجلد!"

وكذلـك كـان دأب الشـعراء الذيـن قـالوا الشعر بالعربية من أهل شبه القارة فإننا نراهم يتتبعون شعراء المعلقات وحماسة أبي تمام الطائي أو شعراء العصـر الإسـلامي ككعـب بـن زهـير صـاحب البـردة النبوية وحسان بن ثابت رضـى الله عـنهما ويقلدونهـم لـيس في المعاني والموضوعات الشعرية فحسب بل أيضـاً في الألفـاظ و التراكيـب حـتى لـو تصـفحت دواوينهم أو درست شيئا من قصـائد هـم ومقطوعـاتهم لوجـد تهـم يحـذون حـذو الشـعراء الجاهلـيين والإسـلاميين حذو النعل بالنعل في اللفظ والمعني، ولن تجد منهم أحدا يذكر أو يـأخذ شـيئا مـن الأمويـين أو العبـاسـيين كأن الله سبحانه وتعالى قد أغلق باب الشـعر بعـد الجاهلـيين والإسـلاميين! ولعـل هـذا التقلـيد الجـامد قد كان من الأسباب التي جعلت إقبال يخاف العربية وقرض الشعر بها!

وهـذا التقلـيد لشـعراء العـرب القدامـى والإعجاب بشعرهم يرجع إلى ماورثـه شـعراء شبه القـارة مـن شـعراء الفـرس الذين الزموا على أنفسهم أن يقلدوا الجاهليين ولا يتحرروا من التقليد لهم والإعجاب بهم فهذا أحد النقاد الإيرانـيين يـتحدث عـن المؤهـلات و الشروط الأساسية التي إذا توفرت لشاعر فارسـي يمكـن أن تجعل منه شاعرا كبيرا فأول هذه المؤهلات والشروط ،وعلي رأسـها أن يحفـظ عشرين ألف بيت من الشعر العربي القديم وأن يدرس عشرة آلاف بيـت لـلمحدثين لكي يتمكن من إتقان الأساليب الشعرية وإجادة الأوزان والقوافي قبل أن يدخل مضمار الشعر ومجاله!

ومن النقاد الأجانب الذين درسوا آداب الأمم الإسلامية على تنوعها واختلافها هو المستشرق الإسباني (غارسيا غومس) الذي خرج بالنتيجة بعد الدراسة الشاملة للشعر الإسلامي لهذه الأمم والشعوب الإسلامية فقال: "إن الشعر الإسلامي كله ولكل أمة من أمم الإسلام، دون أي تردد واستثناء، إنما هو شعر يحمل طابعا مشتركا من المعاني والأفكار الشعرية التي ورثوها من الشعراء العرب القدامى، فما دامت حياة العرب القدامى قد امتازت بالحل والترحال والنزول والتنقل من مكان لآخر، بحثا عن الماء والكلأ، ومن ثم فقد كان جل شعرهم تعبيرا عن الديار الدوارس ومفارقة الأحباء والأصدقاء وذكر العشيقات والحبائب التي ظعن وفارقن ديارهن فتركن الأماكن الخربة المهجورة وراء ن فأصبحت الحياة قلقة مضطربة وحتي صار الوجود أو الكون كله قافلة سائرة مضطربة لاقرار لها ولا ثبات، و قد عبر عن هذه المعاني كلها الشعراء المسلمون في شعرهم لكل أمة وبلد!"

وهذا الذي قاله المستشرق الإسباني الفاضل تعليق صائب ويصح عن شعر كل لغة من اللغات الإسلامية التي نشأت وتطورت تحت تأثير مباشر للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والآداب العربية الواسعة والثقافة الإسلامية وتلك هي حال اللغة الفارسية في كل مكان بالإضافة إلى اللغة الأردية ولغات باكستان المحلية كالبنجابية والسندية والبشتوية والبلوسية والكشميرية وغيرها، وهذه هي اللغات الإسلامية التي قد سميناها، "ببنات اللغة العربية الصوالح" فقد نشأت كلها وتطورت تحت تأثير مباشر للقرآن

الكريم ولغته العربية وتكتب كلها بالخط القرآني العربي ،وتستمد مفرداتها اللغوية ومصطلحاتها الفنية من العربية لغة القرآن المجيد الخالد.

وقد علق المغفور له الأستاذ (منور مرزا) على ما يراه المستشرق الإسباني فقال: بأن الذي يراه السيد (غارسيا غومس) قد يكون فيه شئ من الغلو و المبالغة ولكن الأمر الواقع المتحقق الملموس هو أن المضامين والمعاني الشعرية والمفردات اللغوية التي استخدمها شعراء العرب القدامي قد تلقاها واستعارها كل شاعر مسلم لا بل كل شاعر غير مسلم وغير عربي قد عاش في مجتمع ما من المجتمعات الإسلامية فقال الشعر بلغته المحلية فإنك تري كل واحد من بين هؤلاء الشعراء أنه يذكر في مفتتح القصيد ديارا بلا قع وصحارى مجدبة وبوادي نائية وقوافل ظاعنة والبدو الرحل حتى ولو عاش هو طوال حياته في الحواضر العامرة الخضراء وفي أزقتها الضيقة العامرة ولم يخرج منها قط ولو ليوم واحد!

وانظروا إلى شاعر فارسى كبير وا سمه(منو تشهري) كيف يقلد شعراء العرب الجاهليين في قصيدته الفارسية:

سلام على دار أم الكواعب بتان سياه جشم عنبر ذوائب!

رسوم الطلل والديار الدوارس جو برصدر منشور توقيع صاحب

فالمصراع الأول لكل بيت من هذين البيتين عربي ولا يحتاج إلى التعريب، وأما المصراع الثاني للبيت الأول فمعناه: إن هذه الكواعب أصنام ودمي ذات عيون سود وذوائب من العنبر، ومعني المصراع الثاني للبيت الثاني

"وقد بدت هذه الرسوم كأنها توقيع الوزير أبي الحسن الصاحب قد نشر علي الطغراء"

وقد عرفنا الشاعر الفارسي المفلق الهندي الأمير(خسرو) الدهلوي، وهو أحد الثلاثة الذين يستحقون الزعامة الشعرية في شبه القارة، وهو الذي كان يري بأن أسلوب الشاعر أو الكاتب إذا خلا من جمال العربية وملاحتها فقد حرم من كل شئ من الزينة والجمال!"

"إن الكلمة العربية المستعارة في الأساليب الفارسية إنما هي من حلاها ورونقها وبهائها!"

وهذا شاعر فارسي آخر من الرعيل الأول لشعراء اللغة الفارسية، وقد عرف واشتهر بلقب (معزي) يقلد أمر ء القيس ويحذو حذوه حذو النعل بالنعل فيقول:

"إي سار بان! منزل مكن جز بر ديار يار من

تايكزمان ز اري كنم بر ربع و اطلال ودمن

ربع ازدلم بر خون كنم خا كِ دمن كلكون كنم

أطلال راجيحون كنم از آبِ جشم خويشتن"

ويريد أن يقول: " أيهَا الجمَّال! لا تنزل إلا في ديار حبيبى لكي أبكي لحظة على الربع و الأطلال والدمن وأريق دما من قلبي على الربع حتى أملأ ترابه بالدم وحتى يحمراالدمن ولكي أجعل من الأطلال نهر جيحون المتلاطم بالماء المتدفق الذي سوف أسكبه من عيوني!!"

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة على أثر العربية وآدابها في شعر اللغات الإسلامية عامة وننتقل إلى إقبال لكي نتمكن من الإطلاع على مدى تأثره بلغة القرآن الكريم وآدابها فيما قال من الشعر باللغتين الأردية والفارسية فمن ذلك ما كان يراه إقبال من الفرق بينه وبين شعراء اللغة العربية الكبار الذين قد أمطروا الوابل من شعر المديح والهجاء فيقول إقبال ويكثر من القول في شعره الأردي والفارسي كليهما بأنه (أي إقبال نفسه!) لا يقول الشعر بالعربية إلا أن شعره باللغتين – الأردية و الفارسية- ملئ بالمعاني والتعبيرات اللفظية أو اللغوية القرآنية والحديثية وبما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من المعاني الرفيعة الكريمة والأفكار النبيلة النافعة ولكن شعراء العربية، في القديم والحديث، لم يتأثروا بها على الإطلاق رغم أنهم فصحاء العربية وبلغاؤها والعارفون بأسرارها ورموزها، وأما إقبال فرغم أنه أعجمي وينحدر من أصل كشميري ومن براهمة كشمير وبناديتها إلا أنه قد عكف على الكتاب العزيز الخالد واستفاض من مائدته الغزيرة فأفاض على الأمة بما تلقي منه واستفاض، وجاء شعره تعبيرا صادقا عن المعاني السامية والأفكار الرفيعة من القرآن والمعارف الإسلامية الأخري!

وله قصيدة أردية طويلة رائعة وعنوانها"ذوق وشوق" قد نظمها إقبال خلال رحلته الفلسطينية وسفره إلى القدس الشريف حيث نزل في طريقه بأرض مصر العزيزة وزار عاصمتها القاهرة المعزية ومنها خرج متجها إلى أرض فلسطين المباركة وهو عائد من لندن بعد المشاركة في مؤتمر المائدة المستديرة في سنة ١٩٣٢م، وهذه المطولة الرائعة يسودها الجو العربي الخالص

والبيئة الفلسطينية اللطيفة ويصور الشاعر فيها مشاهد بدوية تخيلها وكأنه يمر في صحراء العرب التي مارآها إقبال يوما قط وإنما سمع بها وقرأ عنها في الشعر العربي القديم والجاهلي منه على وجه أخص، استمعواله كيف يصور منظر الصباح الصافى المضئ في صحراء من صحاري العرب قائلا ما معناه:

"يالـه مـن مشـهد الصـباح المنير المتلألئ في الصحراء العربية! إنه قد جاء بحياة مرحة وروح حيوية للقلب والعين كليهما! قد طلعت الشمس وكأن ضياء ها جداول وأنهار تسيل وتفيض نورا وغبطة وسرورا!"

" ويبدو كأن سحب الليل قد خلفت وراءها قطعا منها، بعضها حمراء والبعض الآخر زرقاء تسرالناظرين إليها وقد بدت هذه القطع الحمراء الزرقاء و ألبست جبل(إضم) برودا ملونة من الطيلسان!"

"وإن الهـواء الطلق الصافي لاشئ فيه من الغبار ، وكذلك أوراق النخيل هـذه قد غسلها ندي الليل ونقاها تنقية و أما الرمال المترامية التي توجد حول قـرية(كاظمة) فلا تسأل عن لينها الطيب ولطافتها الناعمة إذ هي الين وألطف من الحرير!"

"وتسـتطيع أن تـري موقـدا(أو الأثـافي!) قد خبت نارها وانطفأت كما تسـتطيع أن تشـاهد أطنـبة مقطعة مبعثرة هنا وهناك، مما يدل على أن قوافل الظاعـنين الكـثيرة كانـت قـد نزلـت بهـا ثـم سـافرت وسـارت في طـريقها إلى منازلها!"

فهـذا هـو الجـو العـربي الـبدوي الـذي يسود قصيدة إقبال هذه' كما تـراه، وتلـك الأمـاكن المختلفة التي وردذكرها فيها لا يتصور وجودها في بلاد

شبه القارة التي ولدبها إقبال ونشأ وعاش في سيالكوت أوفي لاهور كما أن جبل إضم وقرية كاظمة لم يرهما الشاعر في حياته أبدا وإنما سمع بهما وقرأعنهما في بعض ما درس من شعر الشعراء العرب الإسلاميين كبردة الإمام البوصيري، رحمه الله، الذي يستهل بردته المعروفة السائرة على ألسنة الناس في كل مكان فيقول:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة أو أومض البرق في الظلماء من إضم!

ومن قصائد إقبال الرائعة قصيدة مطولة أخري وعنوانها" مسجد قرطبة أي جامع قرطبة" ويضمها ديوان إقبال المعروف باسم بال جبريل، أو جناح جبريل وكان إقبال قد ابتكرها وهو في مدينة قرطبة وفي رحاب جامعها التاريخي الجليل خلال زيارته للفردوس الإسلامي المفقود، على حد تعبيره هو نفسه، وذلك حين انتهي مؤتمر المائدة المستديرة والذي عقد في سنة ١٩٣٢م بمدينة لندن، فمن هناك اتجه إقبال نحو إسبانيا أو الأندلس الإسلامية ، وأتيح له أن يدخل جامع قرطبة ويصلى في محرابه ركعتين ويقف أمامه موقف المتعجب به المكبر له ، وتأثر ببنائه الرائع الصامد وجماله الخلاب الخالد، فاندفع به طبعه الفياض وتدفقت قريحته المبدعة بينبوع من الشعر الأردي الذي قلما يوجد له نظير في تاريخ اللغة الأردية وآدابها ويكاد النقاد يجمعون على أن قصيدة جامع قرطبة" لإقبال هي إحدي الروائع الأدبية العالمية!

ورغم أن القصيدة قد ابتكرها الشاعر وهو في أوربا إلا أن جوها الداخلى الجميل الأخاذ الذي يسيطر علي ذهن القارئ ويحيط به من بداية

القصيدة إلى نهايتها هو جو عربي شرقي يحفل بذكر النخيل والإبل والرمل والبيداء والخيل والفرسان وأسماء الأنبياء والصحابة والأبطال والأعلام الذين صنعوا التاريخ وأسسوا المجد وبنوا الحضارة الشامخة التي تفتخر بها البشرية وتزين أسبانيا التي لم تحظ بمثلها قبلها أو بعدها أبدا، ويبكي عليها الأسبان أنفسهم اليوم بكاء النادم الكسعي بما فعلوا برودها وبناتها!

يقف إقبال موقف المؤمن الصادق المتخشع بين يدي ذلك المسجد فيصور جماله الخلاب في شعره ويغني بجلال البناء وجماله وعظمته وصموده ويخاطبه قائلا:

"إن جمالك وجلالك اللذين يحيطان بك أيها المسجد العظيم ! إن هذا الجمال والجلال إن دلاّ على شئ فإنما يدلان على جمال الرجل المؤمن وجلاله! ذلك الذي بناك أيها المسجد! فإذا كنت أنت جميلا و جليلا فمن اللازم الضروري أن يكون الذي بنا ك جليلا وجميلا!!

"إن بناءك العظيم الجليل هذا قد قدرله، البقاء والخلود، إن أعمدتك هذه التي ليس لها حصر ولا حساب، إنما تبدو لى وكأنها جمع محتشد من النخيل في بادية من بوادي الشام أو العرب! وأما أبوابك هذه الكثيرة فقد تجلى عليها نور من أنوار الوادي الأيمن الطيب المبارك! وكذلك سقفك هذا الرفيع كأنه سماء من السماوات العلى وأري أن مئذنتك هذه العالية الشامخة إنما هي منزل سينزل فيه الملاك جبريل!"

"إن القضاء على الرجل المؤمن، من أمثال مؤسسك وبانيك، أيها المسجد الجليل يكون مستحيلا ،وذلك لأن الأذان الذي كان قد جري على

لسانه في غدواته وروحاته لا يزال يرن في أجواء الفضاء حتي اليوم وأسمع صداه لأنه صوت ملكوتى سرمدي ينبئ عن أسرار إبراهيم الخليل ورموز موسي الكليم عليهما السلام"

وهكذا يستمر إقبال في قصيدته المطولة الرائعة ويذكر فيها الأماكن التاريخية ويشير إلى ما يتصل بها من الأمجاد العظيمة كما يتحدث عن الأبطال العرب المسلمين وعن دورهم الذي قاموا به في التاريخ الإسلامي المجيد وتعتبر قصيدة" جامع قرطبة" من روائع الأدب الأردى الإسلامي العظيم وتتجلى فيها عبقرية إقبال الفذة وطبعه الفياض و قريحته المبدعة في قمتها من الإبداع والابتكار!

وإن المتتبع لتاريخ الإسلام بمراحله الكثيرة وآثاره الباقية ليشاهد بأن دين الله الحنيف القيم عند ما خرج من مهده العريق ، جزيرة العرب وقد حمل لواء ه الرعيل الأول من الأمة الإسلامية، هاديا مرشدا حينا وفاتحا منتصرا حينا آخر،كان القرآن الكريم هو المصدر الأساسي والمنبع الأصيل لحياتهم العلمية في الدنيا كما كان هو المبدأ الوحيد للهداية والنجاة في العقبى وهو السبب الأول والعلة الأولي والمحرك الوحيد الذي قاد قافلة العلم والأدب والفكر والثقافة في كل مرحلة وفي كل مكان ومنه نشأت علوم لم يكن ليخطر ببال أحد من العرب والعجم قبل نزوله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، ورحم الله الجلال السيوطى الذي صرح في اتقانه بأن علوم الأمة ومعارفها، سواء في ذلك ما ترجم إلى العربية من لغات الشرق والغرب أوما ابتكره المسلمون أو اكتشفوه، قد تجاوز عدد هذه العلوم والمعارف المئات بل الألوف!

ومن ثم فقد كان من الطبيعي أن يكون القرآن الكريم هو أول المؤثرات الثقافية وأقواها في نفوس من دخل في دين الله الحنيف القيم الذي لم يفرق بين العرب والعجم ولم يميز بين الأسود والأحمر أوبين الذكر والأنثى، وهذه الوحدة الشاملة والمساواة الكاملة قد رغبت الناس في الدين فأقبلوا عليه إقبالا ودخلوا فيه أفواجا، وقد كان من الطبيعي أيضا أن يكون الكتاب العزيز هو كل شئ لهؤلاء البشر جميعا وأن يؤثر في نفوسهم ويغير حياتهم ويزودهم بكل ما يحتاجون إليه في حياتهم اليومية من العلم والأدب والثقافة والدين والعقيدة.

وقد حمل الأوائل من العرب المسلمين معهم بعض المصادر الأدبية والعلمية الأخرى تساعد في فهم القرآن الكريم وتفسيره وعلى رأس هذه المصادر هي مجاميع الشعر القديم ومصا دره كالمعلقات السبع وديوان الحماسة لأبي تمام ودواوين الشعراء القدامى، وقد كان الطفل المسلم في كل مجتمع إسلامي يُنهي قراءة القرآن ودراسته ثم يعكف على دراسة هذه المصادر الأدبية والعلمية فيحفظ ما يقرأ ويدرس ويتقن ما حفظه أو درسه ثم يستخدم ذلك كله من المعاني والألفاظ في حديثه اليومي وكلامه العادي وأخيرا وليس آخرا، كان يستخدم ما حفظه من الكلمات والأفكار فيما ينتجه بلغته المحلية من العلم والأدب، والعلامة محمد إقبال هو خير من يمثل ذلك المسلم الذي تأثر بهذه المؤثرات الثقافية والمصادر الأدبية والعلمية وقد علمنا رغبة إقبال في كتاب الله واهتمامه به و ولوعه بالعربية وآدابها وإعجابه بالشعر العربي القديم!

وأما شعر إقبال الأردي والفارسي فهو يحفل بأثر العربية وآدابها ولن نكون من المبالغين إذا قلنا بأن كل بيت من شعره لايخلو من التأثير الثقافي العربي والإسلامي، ورحم الله صديقنا الأستاذ (منور مرزا) الذي كان يقول، وهو على حق حين يقول، بأن إقبال هو أقصر طريق نحو فهم الإسلام ومعارفه الجمة فمن لم يجد الفرصة الكثيرة لدراسة الإسلام ومعارفه الجمة الواسعة الغزيرة فعليه أن يكتفي بالتركيز على دراسة شعر إقبال وفكره!"، فرغم أن شعر إقبال وفكره إنما هو نسيج الأصالة والاستقلال من حيث الإبداع والابتكار ومن ناحية اللفظ والمعنى، لأن إقبال لم يحاول بل لم يرد أن يترجم شيئا من القرآن أو الحديث أو يحكي شيئا من ذلك على سبيل التكف والاصطناع،وإنما درس إقبال مصادر الإسلام دراسة شاملة وفهمها فهما جيدا وأدركها إدراكاً صحيحا وتعمق في ذلك تعمقا جيدا ثم جري كل ذلك على لسانه عفوا و بداهة فجاء بشعر إسلامي أصيل يعبر عن مضامين تعاليم الإسلام و يمثلها خير تمثيل، ولم يقل قط ما يعارض الإسلام أو يناقضه فقد ظل إقبال يمجد الإسلام تمجيدا أو يغني بأمجاد الأبطال الإسلاميين بدأ بالرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين وأصحابه البررة الكرام وآله الطيبين الطاهرين، ونهاية إلى القادة الزعماء المسلمين عبر العصور كما أنه دافع عن الإسلام وأتباعه المسلمين في كل مكان وزمان، ولم يزل يكافح من أجل مستقبل زاهر للإسلام والمسلمين ويحرضهم على العمل الجاد والتعاون الشامل فيما بينهم وقد ترك لهم تراثا فكريا وشعريا سوف يظل منارا مضيئا في طرق وعرة وفي ظروف حرجة وفي أزمات شديدة! هذا هو انطباع إجمالي شامل عن شعر

إقبال وفكره ويستطيع كل مسلم أن يجد بغيته فيه ويبحث فيه عما يعزيه ويزوده بما يحتاج إليه من الدعم الفكري والاسترشاد والاهتداء به في أحلك الظلمات من حياته إذ هو فكر وشعر إسلامي في أصح معاني الكلمة وأدقها!

وأما من أراد أن يبحث عن تفاصيل المؤثرات الثقافية العربية الإسلامية في شعر إقبال فله مجال مفتوح وأمامه بحر زاخر ولديه دواوين شعرية أردية وفارسية ويستطيع أن يري إقبال وهو يورد في شعره كلمات ومفردات عربية، كان قد قرأها ودرسها في الشعر العربي القديم – كما يدرس كل طفل أو طالب مسلم يريد أن يتثقف ثقافة عربية إسلامية- وكان يستخدمها في شعره عفوا وبداهة فإننا نراه يأتي باقتباس مصراع عربي أو تركيب عربي بطريقة تلقائية لا تكلف فيه ولا اصطناع وإنما يبدو للدارس كأن الشاعر العربي القديم كان قد جهز تلك المصاريع أو التراكيب من أجل إقبال ليستخدمها في شعره إذا أراد، فهذا عمرو بن كلثوم التغلبي كان قد تحدث عن أم عمرو التي صبنت الكأس عنه وعن أصحابه ومن ذلك "كأس الكرام" العربية التي أعجبت إقبال لأن فيها نصيبا لكل من هب ودب، وحتى الأرض الجافة الظامئة، يشبه بها إقبال "العشق"- وذلك من المصطلحات الفنية التي اختارها للتعبير عن المعاني والأفكار التي لها دورمهم في تكوينه الفني والتطوير الفكري عند إقبال- في مطولته الرائعة عن جامع قرطبة حين يقول ما معناه:

"إن العشق أوالحب هو أصل الحياة وروحها وهو كائن قد حرم الله عليه الموت إذ بهذا العشق يتم ويتجلى ما يحققه الرجل المؤمن من عمل!"

"إن تيار الوقت شديد ويمر سريعا إلا أن العشق سيل عارم ويحول دون أي سيل سواء كان الوقت وسرعته أو فيضان الماء وتلاطمه!"

"إن العشق هو نفس جبريل وهو قلب المصطفي صلى الله عليه وسلم، والعشق هو رسول الله إلى خلقه وهو كلام الله في كتبه!

"إن العشق هو الذي يمنح سكر الجمال للزهور فتراها وقد لبست من الرونق والبهجة والبهاء وهذا العشق هو قوة ثورية تحرك النفوس و ينشطها تنشيطا! وأن العشق إنما هو"كأس الكرام!"

فمن يدري أن إقبال كان قد اطلع على بيت شعري لشاعر عربي تحدث عن كأس الكرام هذه في شعره فأخذها واختارها كمصطلح له شعري فظل يستخدمه في شعره وذلك كما يقول شاعر من شعراء العرب الكرام:

شربنا شرابا طيبا عند طيب وكذلك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة فللأرض من كأس الكرام نصيب

ومن التراكيب اللغوية في الشعر العربي"منارة الراهب المتبتل" تهدي المسافرين فلا يضلون الطريق ومنها"القنديل الرهباني" الذي يضئ لهم في الظلام الحالك في الصحاري والبوادي، يقول امرؤالقيس:

تضئ الظلام بالعشي كأنها منارة ممسي راهب متبتل!

فيقلده إقبال و يقول ما معناه:

"إن جذوة الإيمان بالله والتي تملأ قلب المؤمن الصادق، والثقة القوية التي يرزق بها كل مؤمن في سيرته الذاتية وحياته العملية، إنما هي التي

تمهد له الطريق وتضئ له في أحلك الظلمات لدنيانا هذه! وهذه الجذوة وهذه الثقة هي التي تقضي على شوائب الظن والريب و مثالها مثال القنديل الرهباني الذي يهدي المسافرين في البوادي والصحاري فيهتدون بها في ظلام الليل الحالك!"

ومن ظواهر أثر العربية في شعر إقبال أنك تراه يتحدث عن الأشخاص الذين اشتهروا في تاريخ العرب وعرفوا بمواقفهم عن الحياة العملية حتى أصبحوا مضرب المثل في بعض أوصافهم، فيستخدم إقبال الكلمات أو المصطلحات أو الجمل التي جرت على ألسنة هؤلاء الأشخاص الأبطال التأريخيين كأبي جهل عمرو بن هشام المخزومي الذي اشتهر كخصم لدود للحق ومعارض شديد للدين الإسلامي، ففي ديوان الأسرار والرموز وفي دواوين إقبال الشعرية الأخرى توجد أمثلة كثيرة على ذلك، ومنها مثال أبي جهل نفسه الذي يستصرخ ويستغيث ويشكو ضد انتصار الإسلام وانتشاره في العالم و يأتي إقبال بكلمات وتعبيرات قد تداولها المجتمع العربي الجاهلي في وقته من الجود والكرم، والتفاخر بالنسب والأموال والأولاد، والاستمداد من الأوثان والأصنام، ودعاء الكافرين في ضلال، وأخيرا ينادي أبو جهل آلهته من اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فيقول بأن هذه الأخوة والمساواة التى يدعو إليها محمد صلى الله عليه وسلم إنما هي فكرة أعجمية لا صلة لها بدين العرب وتقاليدهم من الفخر بالآباء والأنساب، وعند ما ييئس أبو جهل، على لسان إقبال، من آلهته فيعلن مستخدما تعبير امرئ القيس الشعري في معلقته:

"يـالات! ياعـزى ! يامـناة! أين أنتن فقد ارتبط وجودكن بأبصارنا لا ترحلن من ديارنا! فاذا كنتن قد أزمعتن صرمنا وفراقنا فأجملن الصرم والفراق ولا تتعجلن"!

إن مـن دأب شـعراء اللغات الإسلامية أنهم إذا أرادوا أن يذكروا امرأة في شعرهم فلا يصرحون بأسماء هؤلاء، وإنما يكنون بها ويستعيرون لها أسماء العشيقات والحبائب لشعراء العرب الجاهليين مثل أم فلانة وفلان، أو سلمى و سليمى و سعد ى وسعاد ولا يستثنى إقبال في ذلك فهذه الظاهرة الغريبة تشمل إقبال وغيره من الشعراء الذين قالوا الشعر باللغات الإسلامية بما فيها الفارسية و الأردية، ولم يكن إقبال شاعر العشق والغرام ولم يعرف عنه أنه ضل الطريق أو زلت به قدمه في يوم من الأيام، وحتى خلال إقامته في أوربا الكاسية العارية التي يسيل جوها بالإغراء و الغواية وبالفسق والفجور، إلا أنه أراد أن لا يتخلف عن غيره من الشعراء في تقليد الشعراء العرب العشاق الغزليين الذين اقتحموا في وادي العشق والغرام فشببوا بمن شاءوا من النساء وأختاروا لهم من أعجبتهم منهن، وسموا عشيقا تهم وحبا ئبهم في شعرهم كسعدي وسلمى أو سليمي التي أعجب اسمها إقبال فجعل منها عنوانا لقصيدته ليعبربها عن حبه الصادق لله عز و جل فقال:

"إن الله في كل جهة ومكان فأينما تولوا فثم وجه الله ! وكل شئ في الكون يدل على وجوده سبحانه وتعالى، وكل طالب حق يستطيع أن يشاهد قدرته فيما حوله وحسب ظروفه! فالمنجم يشاهده في الشمس والقمر والكواكب السيارة الأخرى، ويجده الصوفي في قلبه وفي قرارة ضميره ويشاهده الفيلسوف

المفكر في عجائب كونه كما أن الشاعر يشاهده في جمال الحدائق والندي والأزهار وفي الصحاري والجبال والأنهار حيث يتجلى ربنا بقدرته في كل مكان، وكل شئ يدل على وجوده سبحانه وتعالى "وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم"!

وله قصيدة أردية أهداها إلى صديقه وعنونها باسمه: "إلى عبدالقادر الشيخ" وهو صديقه القديم قد عاش معه في أوربا وهو الذي دوّن أول دواوينه الشعرية "بانك درا" أي صوت الجرس ، وقدم له، وهي قصيدة حلوة رائعة جدا تشتمل على الدعوة إلى الوحدة الإسلامية والنهضة العربية فيدعو إقبال كل أصدقائه وكل من ينصح لأمة الإسلام أن يتعاون معه في إيقاظ الأمة العربية الراقدة وينشطها للنهضة الإسلامية التي تحتاج ، في رأي إقبال ، إلى رجل صحراوي مؤمن من أهل الحجاز والجزيرة العربية:

"تعالوا يا أصحابي وأصدقائي ودعوا الصين بل الشرق والغرب – !تعالوا معي! واهجروا هذه الأصنام من القومية والجنسية التي أنتم لها عاكفون! تعالوا نركز اهتمامنا وعنايتنا على سعدي وسلمي أي الأمة العربية الحجازية! انظروا إلى ليلى في يثرب (ويريد بها حكام الحجاز الهاشميين) قد أصبحت ناقتها مهجورة مخمولة وليس من يهتم بأمرها فعلينا أن نملأ قلب كل قيس(أي عربي!!) بالآمال والأماني والأهداف السامية ونحرضه على تحقيقها لكي يتمكن قيسنا(إخواننا العرب الكرام!) من الاهتمام بأمة الإسلام ومستقبلها الزاهر!"

ومن بين هذه الظواهر التي تدلنا على أثر العربية في شعر إقبال وفكره هي الحركات الإسلامية العالمية كحركة المهدي السوداني و السنوسى الليبي ومحمد بن عبدالوهاب النجدي وغيرهم ، وكان إقبال معجبا بتحمس المهدي وبسالته في جهاده وكفاحه ضد الاستعمار البريطاني، وقد ذكره إقبال في شعره أكثر من مرة، وكلما ذكره جاء بالمفردات العربية التي تخص حياة البداوة والصحراء، ويشعر القارئ وكأنه يدرس شعر شاعر بدوي عربي قح قد عاش بين القبائل العربية وعرف حياتها الاجتماعية وقيمها الثقافية وتنقل معها في البحث عن الكلأ والماء في الصحاري المترامية الأطراف. ويري إقبال المهدي السوداني بعين الخيال فيصوره في شعره وقد ركب المهدي ناقته التي يقودها الحادي الذي يخاطبه المهدي فيقول له:

"أيها الحادي! إن ناقتي هذه فرحة لأنها تتمتع بأجود الكلأ، وأما أنا فإني مسرور لأنني أتوجه إلى الله تعالى وأتمتع بذكره ! أيها الراعي الحادي! أما تري أن ناقتي مقودها في يديك ولكنني أنا في يد الله ربي الحبيب الذي أحبه أشد ما يكون ! فالماء متوفر في البوادي ، وأري قمم الجبال وأوراق النخل كلها صافية نقية قد غسلها المطر ، ماهذا أيها الحادي ! وقد وصل أصحابنا إلى مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم وأما نحن فقد تخلفنا عنهم ولا زلنا نهيم في جبال نجد وأوديته!"

وللأمير الأموي عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس قطعة شعرية جميلة قد سار بها الركبان، وقدروها حق تقدير و رواها غير واحد من المغاربة في

مؤلفاتهم ومنهم أحمد المقري الذي يروى بأن الأمير نظر يوما إلى نخلة وحيدة منفردة فجاشت قريحته العربية فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت: شبيهي في التغرب والنوي ... وطول اكتئابي عن بني وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي ... يصح ويستمري المساكين بالوبل!

واطلع إقبال على القطعة الشعرية هذه فأعجبته فجعلته يعلق عليها حين زار الأندلس وهو يشارك الأمير في عواطفه ويؤيد أفكاره فيقول ما معناه، وقد عنون إقبال قطعته الشعرية التي قالها بتلك المناسبة: " أول شجرة النخل في الأندلس قد زرعها عبد الرحمن الأول" ثم أتي إقبال بملحوظة صغيرة ونصها:

"وهذه الأبيات لعبد الرحمن الأول قد وردت في تاريخ المقري وهذه ترجمة حرة للأبيات!":

"أنت نور عيني وسرور قلبي أيتها النخلة! إني بعيد عن الوطن مثلك فأنت نخلة الطور بالنسبة إلى! قد ربتك نسمات الغرب ولكنك حورية من صحراء العرب فكلانا قلق حزين في الغربة والفراق وبعد الدار، عشت في الغربة وسقتك نسمات السحر يا نخلة مشهد العالم غريب فلا طاقة للعين أن

تشاهده ! وأعان الله أهل الهمم والعزائم لأن بحر المشاكل لا ساحل له، وأن الحياة روحها اللوعة الباطنية لأن التراب لا شرارة فيه، وأن النجمة التي سقطت من سماء الشام قدزادت نورا وضياء في غربتها، وذلك لأن دنيا المؤمن ليس لها حدود ولا ثغور، فكل مكان ينزل فيه المؤمن يصير له وطناً ومقاماً!".